جيوش جديدة ضخمة الدفاع عن ارض الوطن كما لو أنه كان تحت وطأة غزو تتراي جديد . وقد وصلت هذه القوات من الجنوب والشرق ويقدرون أن ثلاثمائة الف رجل كانوا في عام ١٥٧٨ يمشون الى الغرب لمواجهة العدو والقى الملك إتيين الحصار على بسكوف حيث اصطدم بمقاومة بطولية دمرت معنويات جيشه الخليط بسرعة كبيرة ، وهناك لاحظ أن الروس بدفاعهم عن أرضهم يكونون ادعى للخوف منهم عندما يحاربون خارج حدودهم بعشر مرات . واضمحل حلمه الكبير في ضم روسيا الى بولونيا ، ثم فهم اخيرا أن من الحكمة ان يدعم انتصاراته بصلح معقول . وكان الروس قد طردوا من ليتوانيا وليفونيا على السواء ورأى من واجبه أن يكتفي بمنعهم بواسطة معاهدة من أن يقوموا باعتداءات جديدة على هذه الارض في المستقبل .

كانت تلك أكبر إهانة تحملها القيصر طوال عهده . فهذا الجيش المؤلف من ثلاثمائة الفا رجل من الجنود الطيبين كانت تنقصه روح التلاحم والانضباط ليتمكن من مواجهة ستة وعشرين الف رجل يكادون ان يكونوا كلهم من المرتزقة . وهكذا خاب المخطط الامبراطوري في دفع الحدود الروسية حتى البلطيق وأصبح خرافة تأجل تحقيقها الى زمن تاريخي لاحق حيث سيقوم بطرس الأكبر بتحريكها وإنعاشها . إلا انه ترافق مع هذا الاخفاق الكامل في الغرب انتصارات مجيدة تحققت في الشرق ، فعلى الجانب الآخر من الفولغا تمكنت حفنة من القوزاق والمتشردين بقيادة ايرماق البطولية أن تحمل لقيصر روسيا لاول مرة أرض سيبريا ، وبذلك دخلت روسيا الى النصف الشمالي من القارة الاسيوية الذي كان يومذاك خاليا من السكان . وكانت هذه المأثرة قد بدأت بدون إذن من القيصر . والحقيقة أن تاريخ هذا الفتح الأول إنما يرتبط بعهد إيڤان أكثر من ارتباطه بسيرة حياته لأنه لم يساهم فيه شخصيا إلا مساهمة لا يكاد يكون لها وزن .

إنها قصة إيرماق البطل الذي قرر أن يتخلى عن حياة التشرد وقطع الطريق ليدخل في خدمة « القيصر الأبيض » . فذهب مع أقل